# الفصل العاشر

## الناصرية: بين التأصيل النظري المطلوب
## والأداة التنظيمية الضرورية

(الحاجة إلى تجديد الفكر الناصري - وإلى إبداع وثيقة إعادة النظر
في الميثاق بعد نصف قرن)

لقد تعرض جمال عبد الناصر ـ وهو في رحاب الله ـ لحملة لا تقل ضراوة عما كان يتعرض له وهو ما زال بعد بين الناس.

بل إن هناك من قالوا :

إن عبد الناصر بعيدًا أخطر من عبد الناصر قريبًا؛ لأنه في غيابه قد تتحول الناصرية من شخص إلى فكرة ومن فكرة إلى تنظيم.

وكان الإسهام العظيم لجمال عبد الناصر:

- أنه ربط مصر بأمتها العربية.
- ثم أنه ربط الأمة العربية ـ بما فيها مصر ـ بالعالم وقيمه وأحلامه.

ولقد تعرض عبد الناصر ـ بسبب ذلك ـ إلى عداوات ضارية وحروب شرسة.

«وبعد أشهر من رحيل جمال عبد الناصر أجمل لي (أندريه مالرو) ـ المفكر الفرنسي العظيم ـ رأيه فيه بقوله:

«بغض النظر عن كل شيء.. بغض النظر عن النجاح أو الفشل، والنصر أو الهزيمة، فإن عبد الناصر سيدخل التاريخ كتجسيد لمصر كما دخل نابليون التاريخ تجسيدًا لفرنسا».

**محمد حسنين هيكل**[60]

(60) كتاب: «عبد الناصر والعالم».

في سنة 2012، مرت خمسون سنة بالتمام على تقديم جمال عبد الناصر ميثاق العمل الوطني (في 21 مايو 1962).

من عبقرية عبد الناصر وقيمة الناصرية، ومما يحسب لوثائقها الأساسية وفي مقدمتها الميثاق - وثيقة عبد الناصر وثورته الأشمل - أن هذه الوثائق، لا يزال صالحًا صحيحًا الكثير منها، إن لم يكن معظمها، وأن «الميثاق» يقدم إجابات مقنعة إن لم تكن دقيقة إلى حد النموذجية، عن كثير من أسئلة الواقع الراهنة المثارة، على الرغم من مرور كل هذه العقود والعهود!.

وحينما قدم جمال عبد الناصر الميثاق، أعلن أنه يعاد النظر فيه كل عشر سنوات، وقد رحل قائد 23 يوليو بعد ثماني سنوات من تقديم الميثاق، ولم تتم إعادة النظر في الميثاق في عام 1972 بعد مرور السنوات العشر الأولى؛ لأن البلاد مضت في سبل أخرى، على النقيض تمامًا مما كانت عليه، ودخلت في نفق مظلم طويل، شديد القسوة والوطأة، بعد استيلاء قوى الثورة المضادة على السلطة، خاصة بعد إحكام سيطرتها على مجمل المقاليد والمقدرات بدءًا من السنة الكابوسية 1974، تحت حكم السادات وخلفه أو تابعه مبارك، أي على مدى يقارب أربعين سنة كاملة!.

وقد آن أوان أن تعيد النظر في الميثاق، مجمل القوى الوطنية الثورية، وفي القلب منها الحركة الناصرية، بعد مرور خمسين سنة على إنجازه وإعلانه، وأن تتجه إلى مناقشة شاملة متعمقة لأبوابه العشرة ومعالجاته وقضاياه، وأن تقدم قراءة ودراسة نقدية لأفكاره ورؤاه، تصل عبرها من ناحية، إلى تحديد ما بقي من الميثاق وتأكدت دقته ونموذجيته، على الرغم من مرور نصف قرن من الزمان، ومع كل المياه التي جرت تحت الجسور ومختلف التفاعلات والتحولات الشديدة، وتقلب الأحوال على كل صعيد ومن كل صوب!.

كما تصل عبرها من ناحية ثانية، إلى تحديد ما ينبغي إعادة النظر فيه وتطويره، والإجابات الأدق اليوم: سواء عن أسئلة سبق أن أجاب عنها الميثاق وفق - وفي سياق - الزمن والظرف التاريخي الذي صدر فيه، أو أسئلة وتحديات جديدة طرأت على الواقع الحاضر ولا بد من إيجاد استجابات وحلول جديدة إزاءها.

هكذا فإنه ينبغي، بالرجوع إلى الميثاق وإلى غيره من وثائق ثورة الشعب المصري ـ العربي بقيادة جمال عبد الناصر، إبداع ورقة إعادة نظر في الميثاق بعد نصف قرن.

إن هذه العملية لا بد أن تتم بموضوعية وعلى أنضج مستوى فكري نظري، وبأسلم الوسائل والآليات، على أوسع نطاق وبأقصى ديمقراطية وكفاءة للحوار الوطني ـ في مختلف القضايا والأبعاد ـ الذي يستهدف إنجاز وإبداع هذه الورقة الضرورية.

وحتى تمثل الورقة إضافة راقية نفاذة معاصرة، لنص أصلي راقٍ تظل له أهميته وقيمته الفكرية النظرية الاستثنائية.

إن الميثاق الناصري، ومجمل ما تتكامل معه من وثائق للثورة المصرية ـ العربية التي قادها جمال عبد الناصر: هو نظرية ثورية للواقع المصري العربي.

وسوف تظل هذه النظرية الثورية الناصرية تمثل ضرورة حيوية، بنصوصها الأصلية، إلى جانب ما يضاف إليها من مراجعة، وليس تراجعًا! ومن إعادة نظر، لا صرف نظر!

وسوف تظل هذه النظرية الثورية الناصرية صحيحة صالحة، بالأصل والإضافة، بالأسس والتأصيل النظري المستمر، حتى أوان أن تتحقق مقاصد وأهداف النضال الأساسية لهذه النظرية.

ولقد انطلقت حركة الشباب الناصري في مصر، ابتداءً من مطالع سبعينيات القرن العشرين، في أعقاب غياب القائد المعلم، وفي مقدمة خطابها وأدبياتها مقولة: (التنظير والتنظيم)، كضرورتين ملحتين ومتلازمتين، للتيار الثوري الناصري وحركته.

(وسوف نركز الحديث في هذا الفصل، خاصة من ناحية التنظيم وإشكاليات الحزب على حال الحركة الناصرية في مصر وتجربتها الحزبية، ونعرف أن ما يجمع بينها ونظائرها على الساحة العربية في ذلك الشأن الكثير، بقدر ما أن هناك تمايزات وتباينات كثيرة أيضًا).

ولأن عادة ما يكون الازدهار أو التقدم شاملًا على كل الأصعدة، وكذلك يكون النكوص أو التعثر شاملًا مختلف المجالات، فإن الحركة الناصرية الطليقة الشابة وقتئذٍ، أنجزت الكثير على صعيدي التنظير والتنظيم في آن معًا (أو التأصيل النظري والأداة التنظيمية)، خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، ثم كان التعثر بعدها وتراجع الإنجاز على صعيدي التأصيل النظري والأداة التنظيمية في آن معًا، خلال العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، لأسباب موضوعية تشمل البلاد عامة وأسباب ذاتية تخص التيار، ليس هنا مقام التوقف عندها.

كما أنه ليس مجال الحديث المفصل حول إنجاز السبعينيات والثمانينيات، من ناحية التأصيل النظري، وكذلك من ناحية الأداة التنظيمية:

- من أندية الفكر الناصري في جامعات مصر و«لقاء ناصر» السنوي بجامعة عين شمس في سبتمبر (في ذكرى رحيل القائد)، مضافًا إليه «لقاء يوليو» في جامعة الزقازيق (في عيد الثورة)، ثم أَضِف «لقاء يناير» في جامعة المنصورة (في عيد ميلاد القائد).
- إلى تجارب التنظيمات الخاصة ـ غير المعلنة ـ (على الأخص تنظيمات أجيال الشباب الناصري ما بين 1977 و1992). بكل الجهد والإقدام والإخلاص والنبل فيها، وبكل ما عليها من مآخذ أيضًا، والحق أن هذه التجربة الثمينة، بكل ما بها في آن من الجسارة والإبداع في اجتهادات التنظير، والشجاعة والتضحية في جهود التنظيم، تستحق التأريخ والتوثيق، وجديرة بالاستفادة من الدروس.

(من أهمها وأكثرها إخلاصًا وتفانيًا «طليعة التنظيم الناصري» (ط.ت.ن) 1977 ـ 1982، و«وحدة الطليعة الناصرية» (وطن) من 1982 حتى انتصاف التسعينيات.. إلى جانب تجارب تنظيمية لفصائل أخرى لم أنضم إليها فلم أعرفها جيدًا ـ بينما شرفت بالانضمام إلى ما سبق ذكره ـ لكنني أثق في أنها لم تكن أقل إخلاصًا

وتفانيًا.. كالذي عبر عنه ورواه كتاب «الثورجية»[61] عن تجربة جمعية الدراسات العربية منذ الثمانينيات..).

لكن المهم هنا ـ في موضوعنا ـ أن الاجتهاد والإنجاز على صعيد التأصيل النظري، يكاد يكون مع الأسف الشديد قد توقف، قرابة ربع قرن، ابتداءً من مطالع عقد التسعينيات، أي ـ على الخصوص ـ عند بداية انشغال الناصريين بالحزب السياسي الذي حصلوا عليه بحكم قضائي في عام 1992.

وفي تقديرنا أنه حزب جاء بالسلبي أكثر من الإيجابي، وبعيوب ومثالب سواء بتوقيته المتأخر ـ كأي تأخر عادة أو غالبًا في الحياة ـ أو بالطريقة التي أدير بها الخلاف التنظيمي داخله بين قواه.

حتى تفجر، في خريف عام 1996 ، أي بعد أربعة أعوام فقط!.

فخرجت منه معظم كوادر الأجيال الشابة والوسيطة، بل والرموز الكبيرة المتميزة من الأجيال السابقة عليها، من طراز «الكاتب الموسوعي ـ الضمير» محمد عودة، والمناضلين النبيلين فتحي المغربي، وسيد الطحان، والقياديين المرموقين د.حسام عيسى، وعبد العظيم المغربي، ود. عاصم الدسوقي أحد أعلام المؤرخين، والكاتبين الصحفيين البارزين عبد العظيم مناف، وجلال عارف، والسفيرين الجليلين وفاء حجازي، وأمين يسري، والإعلامي الراقي النقي عبد الوهاب قتاية.. فضلًا عن ابتعاد سياسي قدير بقيمة وبتاريخ محمد فايق... وغيرهم.

ولم تكن المشكلة في «الصراع التنظيمي»، فهو أمر متوقع طبيعي في حزب تنوعت قواه وجاءت من منابع ومشارب متعددة (الاتحاد الاشتراكي، منظمة الشباب، أندية الفكر الناصري، ...وغيرها)، بل كان يمكن أن يعني ذلك التنوع مزيدًا من الغنى والحيوية والتكامل، كما أن الاختلاف وحتى الصراع التنظيمي هو الأمر الطبيعي دائمًا داخل الأحزاب السياسية في العالم، لكن المشكلة كمنت في

(61) هناء زكي دار الشروق 2011.

(الحزب العربي الديمقراطي الناصري) في عدم إدارة الصراع وفق القواعد التنظيمية الديمقراطية، المعروفة المستقرة داخل الأحزاب السياسية الحقيقية في كل العالم!.

والمشكلة كمنت، والخلل بدا، في أن أطرافًا التزمت بهذه القواعد خلال الصراع التنظيمي، تمثلت أولًا في قوى الأجيال الشابة والوسيطة، وكانت أكبر هذه القوى وأكثرها تماسكًا تلك التي انطلقت بالأساس من خلال أداتها التنظيمية المميزة الناجحة التي عرفت بـ «أندية الفكر الناصري» في جامعات مصر: دفعات متعاقبة على مدار ما يقارب ربع قرن حتى ذلك الوقت (من مطالع السبعينيات إلى أواسط التسعينيات).

بينما مجموعة طامعة، «ضربت عرض الحائط» بكل تلك القواعد، وارتكبت تجاوزات واضحة فاضحة، بلغت حدود التآمر التنظيمي وتزييف الأوراق - بما فيها كشوف العضوية التنظيمية المعروفة!- وتزوير إجراءات الانتخابات... إلخ، مستندة أو معتمدة من ناحية على استمالة «رئيس الحزب» ليكون في صفها، والتأثير في مواقفه من الصراع التنظيمي ليتحول إلى طرف فيه (على الرغم من احترام مختلف الأطراف الحقيقي لاسمه وسجله وقيمته كوطني صلب شريف، هو «ضياء الدين داود»)، ومستندة من ناحية ثانية إلى تدعيم من خارج الحزب، حيث السلطات وأجهزتها - متدخلة مخترقة كالمعتاد - في ظل الحكم المضاد للثورة الناصرية، وللوطنية المصرية بعامة (من السادات وسنينه.. إلى مبارك وزمانه!)، وهي قصة شهدتها - بحذافيرها تقريبًا - كثير من الأحزاب الأخرى:

على سبيل المثال، حزب «التجمع» اليساري. فما أشبه القصة والسيناريو (وربما الحوار!) فيه، بما حدث في تجربة هذا الحزب الناصري.

نفس الفئة أو المجموعة الأقل عددًا، لكن المتجاوزة لكل القواعد المعروفة في ممارسة الاختلاف أو الصراع التنظيمي - «الضاربة بها عرض الحائط» - المؤثرة مع الأسف على شخص رئيس الحزب (على الرغم من احترام الجميع الحقيقي له أيضًا في هذا المثال - في حزب «التجمع» - بل لأبعد مدى، فهو مناضل رفيع القدر وشخص تاريخي من ثوار 23 يوليو الكبار: «خالد محيي الدين»).

ونفس أعراض وأمراض تلك الظاهرة: «صعود من يمكن أن يطلق عليه الرجل القوي في الحزب»: يريد أن يصعد ويصل، يهيمن ويستبعد، هو والمجموعة المحدودة الملتفة من حوله لدافع أو آخر، بكل الوسائل وعلى حساب كل القيم السياسية والثورية والأخلاقية، وفي كل الأحوال: ليس لحساب الصالح العام المهم: الحزب، والصالح العام الأهم: الوطن.

إن تماثل السيناريو والأحداث والشخوص إلى درجة بعيدة، أمر ملحوظ بل يثير الدهشة، بين تجربتي الحزبين (التجمع والناصري)، مع فارق هو أن «الرجل القوي» في تجربة التجمع اسم ألمع وله قدرات أوسع!.

ثم مع فارق آخر، أهم: هو أن الصحفيين الناصريين بجريدة «العربي» لسان حال الحزب الناصري، استطاعوا النجاة بصحيفتهم، بعيدًا عن أن تكون امتدادًا أو انعاكسًا للحزب حتى بعد تهاويه وخروج أهم قواه منه. وخاصة لفترة استغرقتت ما يزيد عن عقد من الزمان (العقد الأول من القرن الواحد والعشرين) - في جهد مهني متفانٍ شاق، وفي صحبة رئاسة تحرير لموهبتين متميزتين شجاعتين: عبد اللّٰه السناوي، وعبد الحليم قنديل، فكانت أنضج جريدة في تلك المرحلة، سواء من الناحية المهنية أو كمواقف سياسية جذرية ساطعة، تحظى بتقدير والتفاف كل القوى والشخصيات الوطنية المعارضة الحقيقية من كل توجه، وليس التوجه الناصري فحسب، معتبرين أنها الصوت المعبر عن مجملهم وعن أفضل وأنبل المواقف للحركة الوطنية، وقد مارست الجريدة ببسالة مهمتها كأشجع ما يكون إعلام مصري، في مرحلة وعقد ما قبل ثورة 25 يناير 2011، بدءًا من أبسط القضايا المطروحة في الواقع إلى التبكير قبل أي إعلام بفضح مؤامرة النظام لتوريث رئاسة الجمهورية لابن الرئيس، إلى التميز بالنقد الحاد الجذري للرئيس نفسه ومؤسسة الرئاسة (المتمتعين بتبجيل بل تأليه الإعلام السائد) وفرض ذلك المستوى من النقد فرضًا كأمر واقع وحق مشروع، مهما كان الحصار المطبق على الصحيفة والصحفيين، أو كانت التضحيات في سبيل الحقوق، انطلاقًا من حقيقة وقانون أن الحرية لا تمنح إنما تنتزع.

نذكر أننا وصفنا وقتها تلك السنوات المهدرة، في مسيرة الناصريين وتيارهم وحركتهم. مع حزب 1992 - بأنها «معارك السنوات العبثية»، وإذا أضفنا إلى «حزب 1992» تجربة حزبية على غرارها، وصراعات تنظيمية من النوع نفسه بين أطراف مماثلة في كل شيء، في محاولة تأسيس حزب ناصري قبل حزب 1992 مباشرة (هو الحزب الاشتراكي العربي الناصري)، لم يحصل على موافقة رسمية قط (فسمى طول الوقت: الحزب الناصري تحت التأسيس)، والأعجب أنه كان مع رجل أيضًا (مرة ثالثة!)، لمكانته وقيمته النضالية والإنسانية احترام حقيقي واسع من قبل الجميع (فريد عبد الكريم)، فإننا نكون بصدد (السنوات العشر العبثية.. للناصريين في مصر!) ما بين منتصف الثمانينيات ومنتصف التسعينيات.

وقد كانت حرب القوى الناصرية المخلصة الصادقة في تلك السنوات حربين، أي على جبهتين في آن واحد: صراع داخل الحزبين المتعاقبين، وصراع وحرب أخرى على صعيد مجابهة نظام الحكم الرجعي بفساده المتزايد والدولة المستبدة القمعية البوليسية!.

وهي قصة تجربتين - أو قصة حزبين - وهذه «السنوات العشر العبثية» معهما، تستحق أن تُروى ذات يوم، بوثائقها وتفاصيلها ودروسها، بخاصة حزب 1992: بداية ونهاية!.

ففي 1992 كانت «آمال البداية» محلقة غير محدودة، وبعد أربع سنوات في 1996 كانت «آلام النهاية» شديدة الوطأة.

وإن استمر بعدها الحزب مجرد إطار أجوف خرب، إلى أبعد مدى، لأكثر من خمس عشرة سنة (حتى جمد كل الوضع تقريبًا في أعقاب 25 يناير 2011)، وكأن ذلك الوضع (لأطلال حزب) طيلة عقد ونصف العقد، كان المطلوب والكافي، بالنسبة للطرف من الداخل الذي استولى عليه والعناصر التي «اختطفته»، لكنه كان بطبيعة الحال المطلوب بعينه والمرضي بالتمام عنه، بالنسبة لأطراف الخارج السلطوية التي تتدخل وتتسلل، تحرك وتغذي، تمد وتستفيد.

هذا الانشغال الطويل (مع الحزبين الضائعين)، بل وما أعقبه طويلاً، مما يمكن وصفه بنوع من «فقد التوازن»، أو «فقد البوصلة»:

أثر بالسلب على وجه اليقين، على مدى إنجاز الناصريين المصريين، في جوانب الاجتهاد المطلوب من أجل تأصيل نظري ضروري، كأنما أغلق باب «الاجتهاد الناصري»، بداية من أخريات الثمانينيات الماضية وعلى مدى يقرب من ربع القرن!.

ولم يحققوا في المقابل إنجازًا تنظيميًا - يعوض - خلال تلك الفترة، بل إنها كانت في هاتين القضيتين معًا: الفترة المهدرة.

وتظل مهمتهم مطروحة مستمرة، والتي عبرت عنها مقولتهم في خطاب وأدبيات فترة السبعينيات الخصبة المشعة المبكرة: «التنظير والتنظيم»؛ أو التأصيل النظري والأداة التنظيمية.

وتظل الحركة الناصرية في مصر بحاجة ملحة إلى تأسيس تنظيم واحد كبير فاعل، يضم كل القوى وتتكامل فيه مختلف الطاقات، بعدما حدث من اندثار وتداعٍ منذ عام 1996.

وبعد إخفاق محاولة التأسيس الأولى في الثمانينيات، ومحاولة التأسيس الثانية في التسعينيات. الحركة الناصرية هذه المرة بحاجة إلى (التأسيس الثالث)، المستفيد من كل خبرات المحاولتين السابقتين، وفي مناخ وظرف مختلف - أو لا بد أن نجعله مختلفًا - خلال مرحلة (أو مراحل) ما بعد ثورة 25 يناير 2011 [62].

ذات يوم قال محمد حسنين هيكل: ما يوجد الآن بحق: الناصريون.. أكثر من الناصرية بالمصطلح الذي نقوله عن الماركسية - مثلًا - «marxism».

(62) انظر نص ورقتنا المقدمة إلى قوى الحركة الناصرية في مصر بعنوان «نحو التأسيس الثالث»، بتاريخ 23 ديسمبر 2011 في ملحق هذا الكتاب.

وبعض الناصريين يومها أبدوا استغرابًا أو عتابًا وإن كان في تردد، وبعضهم استفهموا عن المقصد، عارفين جميعًا بالطبع نية ومنطلقات وشخصية الأستاذ، بنبله وقيمته الاستثنائية.

والحق أنه كان يومها يقصد ـ بجلاء ونفاذ ـ هذه القضية التي نناقشها في هذه السطور، وهي احتياج الناصريين لكثير من جوانب «التأصيل النظري».

فلا يزال بحاجة إلى هذا التأصيل: الميثاق، وما تتكامل معه من وثائق عبد الناصر.

وحتى مع إضافات واجتهادات مفكرين عروبيين شوامخ منذ الستينيات والسبعينيات مثل ـ من دون ترتيب ما: (جمال حمدان ـ محمد عودة ـ عصمت سيف الدولة ـ عبد الله الريماوي ـ نديم البيطار ـ مطاع صفدي ـ عبد الكريم أحمد ـ كمال رفعت ـ أحمد بهاء الدين ـ أمين عز الدين ـ كامل زهيري... وغيرهم). فضلًا عن هيكل نفسه. وبإضافات الجيل الذي أسس للناصرية في السبعينيات، والذي حاول الاجتهاد بحق منذ ذلك الوقت، ما وسعه الجهد.

ولقد قدم الكتاب الصغير، كبير القيمة، لحمدين صباحي «الناصرية: نظرية الثورة العربية»(63) ـ الذي سبقت الإشارة إليه ـ خلاصة اجتهاد جيله، والأجيال التي تلت مباشرة من الناصريين، أو ما عرف وقتها بتيار الشباب الناصري بدفعاته المتتالية.

فقيمة هذا الكتاب ليست فحسب أن «حمدين» كتبه بعبارة ناصعة، وبأسلوبه الذي يجمع بين التحديد الدقيق العلمي، والروح الأدبية المميزة، بحيث لا تطغى أو تؤثر خصيصة منهما على الأخرى، إنما أيضًا أنه قدم بلورة وخلاصة وافية أمينة لما اجتهد به ـ وأهم ما وصل إليه ضفافًا واستشرافًا ـ تيار الناصريين حتى ذلك الوقت. أضف اختياره لمنهج الأستناد إلى وثائق جمال عبد الناصر وخطابه السياسي، في كل تناول الدراسة حول الأصول النظرية وأركان النظرية الثورية، وتطبيقها على الناصرية (فهي دراسة وثائقية، مثلما هي خلاصة اجتهاد هذا الجيل في تقديم رؤية

(63) الطبعة الأولى 1992 ـ عن مركز إعلام الوطن العربي «صاعد».

لفكر يوليو الناصري ـ وليس بطبيعة الحال كما يقول ـ ص 17 ـ صياغة نهائية للناصرية كنظرية للثورة العربية).

ونحن نقف عند هذا الكتاب (أو الدراسة) بالذات، هذه الوقفة، لأننا مع الأسف نقول هنا:

من بعدها توقف الاجتهاد الناصري أو كاد.

التأصيل النظري، أو الفلسفة، وحديث المنهج، الذي يعنيه «هيكل» والذي نقصده في هذه السطور، هو الذي تنطلق منه أية نظرية أو أيديولوجيا حقيقية.

فالميثاق، وما تتكامل معه من وثائق ثورة جمال عبد الناصر، هو «نظرية ثورية».

وحتى إذا قلنا مع الذين يقولون: إنها «خطوط عامة لنظرية ثورية»، أي لا تزال بحاجة لجهد لكي تتبلور أكثر «كنظرية ثورية»، فإننا سواء في حالة كونها «نظرية»، أو «خطوط عامة لنظرية»، أو حتى «نظرية في طور التكوين أو التشكل» كما يذهب هذا البعض أو ذاك... في كل هذه الحالات فإننا نظل نسأل إزاء كل مقولة أو فكرة أو ركن في الميثاق وما تتكامل معه من وثائق:

- على أي أساس؟

أي: على أي أساس نظري، منهجي، فلسفي؟

وهذه هي قضية المنهج، أي الفلسفة، والقوانين العامة الكلية، التي على أساسها تصاغ نظرية ما.

إن سؤال (على أي أساس؟) هو أكثر ما ينقص الناصرية ـ نظريًا ـ حتى الآن.

وإن كان بالتأكيد: لا ينقصها بالكامل، وتوجد بالفعل «بدايات مهمة معتبرة»، و«نقاط انطلاق قيمة».

فإن من بينها هذا المثال أو النموذج، فيما نراه كمنتمين إلى الناصرية، في هذه القضية، ويمكن أن ننطلق منه ونعمقه:

الأخذ بقوانين الجدل (الديالكتيك) التي أخذها ماركس عن هيجل، لكن من دون مادية ماركس، أو ما لدى الفلسفات المادية عامة. وبغير تجاهل لقوانين المادة والطبيعة في الوقت نفسه. ففي فهمنا أن لكل من: (الله ـ الطبيعة ـ الإنسان)، قوانينه «النوعية» التي تخصه وحده دون سواه، على الرغم من بعض العام المشترك بين (الطبيعة ـ الإنسان)، إلى جانب الخاص المتميز لكل منهما. أما (الله) فهو خالق كليهما ويستحيل عقلًا ومنطقًا أن تكون قوانين المطلق (الخالق) مثل قوانين النسبي (المخلوق).

ومن هذا المنطلق ـ أو في ذلك الإطار ـ فإن موقف الناصرية والناصريين من الدين هو «موقف إيماني». يمكن أن ينتموا إلى أي دين يؤمن بوجود الخالق ـ المطلق، ولا يتصور تبعًا لذلك أن نرى «ناصريين حقًا» ينتمون فلسفيًا إلى «موقف مادي إلحادي»، على الرغم من (حدود الناصرية) «كخط سياسي» في النهاية، و«كنظرية ثورية»، و«برنامج سياسي».

مما يكون تأصيله النظري ـ الفلسفي في حدود الضرورة، لإنضاج (الخط ـ النظرية ـ البرنامج).

فليست الناصرية بطبيعتها، على الرغم من الحاجة باستمرار إلى هذا الإنضاج، وإلى ذلك التأصيل النظري ـ الفلسفي، كما لم تطرح الناصرية نفسها يومًا: من نوعية الفلسفات الكلية التي تقدم نفسها بديلًا أو معادلًا للدين أي دين، أو تسعى لأن تجيب تفصيلًا عن كل الأسئلة بدءًا من بداية الوجود وخلق الكون والإنسان وكل قضايا الميتافيزيقا، أي من الألف إلى الياء!.

**هكذا:**

1. نضع اليد على (المنهج: القوانين النظرية الكلية). وهي قضية فلسفية في المقام الأول، وبالمعنى المتخصص الدقيق.

وذلك ما يتطلب من الناصريين لإنجازه وتعميقه تخصصات رفيعة، ومواهب في هذا المجال ممتازة متميزة.

2. بقدر التوفيق في تحديد (المنهج: القوانين النظرية الكلية ـ الفلسفية)، يكون التوفيق في تطبيق المنهج وهذه القوانين العامة، على واقع مجتمع محدد في ظرف تاريخي بالذات، لتغيير الواقع من حال قائم أو جاثم مرفوض، إلى حال عادل متقدم مأمول، لصالح وبقيادة مجمل قوى الجماهير الشعبية صاحبة المصلحة في التغيير الثوري، وبأداة تنظيمية للتغيير وأسلوب للتغيير محددين.

- وما ذلك إلا معنى ومعالم: النظرية الثورية.
- وذلك: ما بلور الكثير والأساسي منه، الميثاق، وما تكاملت معه من وثائق ثورة جمال عبد الناصر.
- وذلك: ما يتعين على الناصريين اليوم جهد كبير بصدده؛ إذ يوجد في المقارنة بين الواقع المجتمعي المصري ـ العربي، وظرفه التاريخي، منذ خمسين سنة، وبين هذا الواقع اليوم، الكثير «المشترك».

لكن يوجد أيضًا الكثير «المختلف».

وفي «المشترك» يستفاد أول ما يستفاد بالطبع من إنجاز جمال عبد الناصر الكبير في النظرية الثورية، لكن في «المختلف» لا ينفع إلا جهد جاد جديد.

3. بقدر التوفيق في بلورة النظرية الثورية لدى الناصريين اليوم، يكون التوفيق في تطبيق هذه النظرية على المرحلة الراهنة، بكل تفاصيلها ومتطلباتها، لصياغة: البرنامج السياسي الاجتماعي الاقتصادي الثقافي بمنتهى الدقة، والمقدرة ـ قدر الطاقة ـ على فهم الواقع الحاضر، واحتياجاته، وتلبية هذه الاحتياجات.

والحق أن ميثاق العمل الوطني كما يؤكد جمال عبد الناصر نفسه: الميثاق عبارة عن جانبين.. أفكارنا الأساسية وهي مبادئ مستمرة، وبرنامج تفصيلي لفترة. وهو ما يتغير باستمرار من مرحلة إلى مرحلة.

وفي ذلك، فإن جمال عبد الناصر يتحدث بالضبط، عن الفرق بين «النظرية» و«البرنامج».

والبرنامج في مقدمة المهام، التي لا نجاح لأي تيار، إلا بمدى نجاحه في إنجازها على أحسن وجه ممكن.

إن الحلقة الجديدة من حلقات الثورة العربية، الحافلة بالآمال والمحفوفة بالمخاطر، التي انطلقت منذ الخامس والعشرين من يناير 2011، بحاجة ماسة إلى أن تتسلح بجهد نظري ثوري خلاق، باجتهادات وإضافات نظرية، يتوفر فيها:

- (كما يقول الباب الأول من الميثاق «نظرية عامة»): «وعي عميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر، من ناحية، ومن ناحية أخرى بقدرة هذا الإنسان بدوره على التأثير في التاريخ.. فكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية، يأخذ منها ويعطيها، لا يصدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد».
- (وكما يقول الباب الثاني من الميثاق «في ضرورة الثورة»): «فكر جديد لا يحبس نفسه في نظريات مغلقة يقيد بها طاقته، وإن كان في الوقت نفسه لا ينعزل عن التجارب الغنية التي حصلت عليها الشعوب المناضلة بكفاحها».

إن جمال عبد الناصر، حتى قبل أن تمر عشر سنوات على تقديم الميثاق - لإعادة النظر فيه - وحينما جد جديد المعركة الوطنية، بعد عدوان 1967 (الأمريكي - الصهيوني) ضد الأمة العربية والثورة العربية: قدم وثيقة أساسية أخرى هي «بيان 30 مارس» سنة 1968.

وإذا كان الميثاق هو صلب مشروع نظرية الثورة العربية، وقد صدر ودارت مناقشاته بعد عشر سنوات بالتمام من قيام ثورة 23 يوليو 1952.

وإذا كان بيان 30 مارس هو بحق: الميثاق في المعركة.

فإننا في أشد الحاجة اليوم - بطبيعة الأحوال - إلى إنجاز وإبداع وثيقة إعادة النظر في الميثاق بعد نصف قرن من تقديمه.

- إنه الميثاق: في إطلالة جديدة، تحليلية علمية شاملة، على ثورة يوليو: المسيرة، والمسار. وعلى أربعين سنة من سلطة الثورة المضادة والارتداد الكامل عن ثورة يوليو (رؤية تستخلص من ذلك الدروس كما استخلص الميثاق بدقة وعلمية على سبيل المثال دروس ثورة 1919 وما بعدها حتى 1952).

- إنه الميثاق: في مصر ثورة 25 يناير. 30 يونيو وأمتها الثائرة. والثورة العربية في حلقتها الجديدة، التي بدأت لتستكمل وتمضي قدمًا، على الرغم من كل العراقيل والمخططات ضدها، ومهما حاول الأعداء والخصوم السياسيين والاجتماعيين، محليًا وإقليميًا ودوليًا.

أجل، فهي ثورة بزغت لتستمر مهما يكن التعثر والحروب عليها وتعدد الجبهات.

انطلقت عبر جولات، ولتنتصر نصرًا حاسمًا بقدر ما هي ضرورة حياتية مصيرية، محققة المأمول من الغايات وأهداف النضال.

لكنها كذلك، بقدر ما هي ثورة أصيلة حقيقية:

1. تظل في حاجة بجانب ضرورة القيادة الوطنية الثورية: المخلصة والقادرة..

2. إلى فكر ونظرية ثورية. وإلى أن يكون لها «ميثاقها».

3. وإلى تنظيم ثوري سياسي.

إنها حتى الآن - فيما يتعلق بالحاجتين الأخيرتين - ينطبق عليها قول ميثاق جمال عبد الناصر في بابه الأول (عن صباح اليوم الثالث والعشرين من يوليو 1952):

> «إن قوة الإرادة الثورية لدى الشعب المصري تظهر في أبعادها الحقيقية الهائلة إذا ما ذكرنا أن هذا الشعب البطل بدأ زحفه الثوري من غير تنظيم ثوري سياسي يواجه مشاكل المعركة. كذلك فإن هذا الزحف الثوري بدأ من غير نظرية كاملة للتغيير الثوري».